مصطلح الحجـــاج بواعثه وتقنياته.

الأستاذ: عباس حشاني
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

ملخص المداخلة:

البحث العربي اللّساني تتجاذبه الكثير من المسائل على مستوى المصطلح ونظرا للتّعلق والتواشج الموجود بين الحجاج والإقناع والبرهان، وما يتعلق به فمن الباحثين من يحدد مصطلح الحجاج من بواعثه ومنهم من يضبطه من مراتبه ومنهم من يحدده من تقنياته ووسائله.

فالحجاج بمصطلحاته ظهر أكثر فيما أفاض فيه علماء الأصول وعلماء التفسير واللغة في تحديد القياس، والتأويل، والدلالة.

وللحجاج ثلاثة توجهات وهي:

- التوجه البلاغي المنطقي لدى" السكاكي".
- التوجه البلاغي الخطابي لدى" الجاحظ".
- التوجه البلاغي البياني لدى" ابن وهب".

وكل هذه التوجهات أسهمت– سواء بعمد أم بغير عمد– في تحديد مصطلح الحجاج.

ويبين المقال علاقة مصطلح الحجاج بالنظر إلى مراتبه وبواعثه وتقنياته.

مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته.

1– تعريف الحجاج:" ARGUMENTATION"

أ– الحجاج لغة:

تدور معاني الجذر اللّغوي لكلمة" حجاج"(ح، ج، ج)، المجادلة بسبب خلاف الوجهة أو الرأي أو ما شابه، ومنه الدليل على الرأي المرغوب إثباته وهذا ما نجده واردًا في بعض المعاجم العربية، فمنها مَنْ أورد معنى الحجاج« غلبه بالحجّة، أو حاجة محاجّة،

وحجاجا جادله، واحتج عليه، أقام عليه الحجّة، وعارضه مُستنكرا فعله، وتحاجَّوا: تجادلوا، والحجّة الدليل والبرهان»[1].

يظهر من هذا أنّ الحجاج يَكونُ لخصومة، وهذا ما دّلت عليه كلمة" غلبة" وتكون الغلبة في الكلام والخطاب للذّي يُقيم الحجّة والبرهان على صحة ما يدّعي، وما دام هناك خصومة فالجدال هو المظهر الذّي يُجسد صورة الخطاب الحجاجي.

وقد ورد في أساس البلاغة« حاج خصمه فَحَجَّه، وفُلان خصمهُ محجُوجْ»[2].
ومعنى" محجوج" أي: مَغلُوب والشخص المتكلّم الغالب المُحاججْ، والسامع المُحاجَج المغلوب، أي أنّه اقتنع بحجّة المتكلم.

وما يزيد هذا المعنى قوة ما أتى به ابن منظور في لسان العرب،« فالحجّة ما دُوفع به الخصمُ، ورجلٌ محْجَاج أي جَدلٌ، والتّحاج التخاصم، واحتجّ بالشيء اتخذه حجّة»[3].

هذا ما يُظهر أنّ الذّي يدّعي صحة رأيه عليه إثبات ذلك، وقد ورد لفظ الحجاج في عدّة آيات من القرآن الكريم منها: قال تعالى:

– (هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).[4]

– (وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ).[5]

– (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ).[6]

– (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ).[7]

ب– الحجـــاج اصطلاحـــا:

منذ نهاية عقد الخمسينيات في القرن العشرين شهدت مباحث الدراسات البلاغية صحوة نوعية، فكانت الدعوة لما سُمي بالبلاغة الجديدة، وهي محاولةٌ لإقامة علم عام لدراسة الخطابات بأنواعها، فأصبحت تسعى لأن تكون علما واسعا يشمل حياة الإنسان كلها في المجتمع، فهي محاولة لوصف الخصائص الإقناعية للنصوص، عملت اللسانيات والتداولية ونظريات التواصل على إنضاجها، فالمناهج اللسانية الحديثة التّي تأثرت بها

البلاغة، تنظر إلى اللّغة كنسق تتفاعل عناصره في إطار علائقي يرفض دراسة الكلمات في ذاتها وقد انبثق عن هذا كله **البلاغة البرهانية الجديدة.**

وهدفها هو دراسة تقنيات الخطاب التّي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التّي تُقدّم لهم أو تُعزز هذا التأييد.

ظهر هذا المنطق مع" حاييم بيرلمان" Perelman ثم تبنته مدرسة" بروكسل"، وأول ظهور له في أحد مؤلفات الكاتب والمفكر" بيرلمان"، وهو مقال في البرهان: " البلاغة الجديدة"، وقد اعتمد محاولة لإعادة وتأسيس البرهان أو الحاجة الاستدلالية.[8]

وحقيق أن نبين حقل الحجاج بعدما بينا مصدره– البلاغة– إذْ عُرف: بالبلاغة الجديدة.

أولا: أنّ الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية بناء على أنّه لا كلام بغير خطاب إذْ حقل الحجاج هو الخطاب، والأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنّه لا خطاب بغير حجاج إذ الحجاج يوصف بأنّه طبيعة في كل خطاب، والأصل في الحجاج هو صفته المجازية، بناء على أنّه لا حجاج بغير مجاز.[9]

ويقدم" بيرلمان" تعريفا للحجاج يُركز فيه عن وظيفة هذا الحجاج وهي« حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع»[10].

يظهر هنا جليا الفائدة من الحجاج أن تقنع شخصا بقضية أو تزيد من شدّة اقتناعه عن طريق الحجاج، لحمله إلى عمل أو تهيئته لذلك.

إذن يتعلق الخطاب الحجاجي بالتعامل وأنّ المنطوق به الذّي يستحق أن يكون خطابا هو الذّي يقوم بتمام المقتضيات التعاملية الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج « إذ حدُّ الحجاج أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها»[11]. وهذا هو الذّي أدّى بـــ" بيرلمان" بأن يُطلق مصطلح" الخطابة الجديدة the new rhetoric" عام 1958، وهي دراسة تتناول الحجاج بوصفه خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير في سلوكه، وبهذا يتخذّ الحجاج مفهومين:

أولا: طريقة تحليل واستدلال، بقصد تقديم مبررات مقبولة للتأثير في الاعتقاد والسلوك.

ثانيا:« عملية اتصالية يُستخدم فيها المنطق logic للتأثير في الآخرين»[12]. وبالنظر للحجاج وكيفية تطبيقه بأن تعرض المقدمة ثم الحجة فالنتيجة، وهو التعريف على آراء وسلوكات المخاطب أو المستمع، وذلك بجعل أي قول مدعما صالحا أو مقبولا وذلك

بمختلف الوسائل بالنظر لقول آخر:« الحجة، المعطاة، الأسباب، نقول على سبيل التعريف أن المعطاة، الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية»[13].

يغدو الحجاج سمة في الخطاب وطابع فيه ووظيفة له ووسيلة لتحقيق هدفه، وهذا الشيء الذي أدى بالبلاغة الجديدة للاهتمام بالحجاج.

ونرصد هنا تعريفا للحجاج بالنظر إليه على أنه:« وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته، وانتقاداته وتوجيهاته»[14].

ويأخذ مفهوم الحجاج أو المحاجّة المجادلة، وهو أيضا طريقة عرض الحجج وتنظيمها ويدل اللفظ على مجموع الحجج الناتجة عن ذلك العرض.

كما تدل كلمة حجة في المنطق الصوري على قيمة محددة يمكن أن يتم تعويضها لمتغير في دّالة وهذا معنى فنّي وتقني.

و« الحجّة في معناها السائر هي إمّا تمش ذهني بقصد إثبات قضية أو دحضها، وإمّا دليل يُقدّم لصالح أطروحة ما أو ضدّها»[15].

والجدير بالذكر انفتاح الحجاج، إذْ يُعدُّ الحجاج حلقة ضرورية تَمرُّ عبرها كلّ العلوم وقد يكون التّوجه الحجاجي فلسفياً، نصّياً أو توجّها لفظياً بحسب زوايا التناول، كالتركيز على المتكلم مثلا بكونه زاوية للتفاعل، وبإمكاننا أن ندرس الحجاج« من خلال علاقة المتكلم بالمتلقي في إطار الحال التّي تفرض(أ) أن يُحدث في(ب) تأثيرا باستعمال آليات الإرسال، كما تفرض على(ب) أن يفهم بطريقة معينة، ما يقول(أ) وبالمفهوم القديم تسند الحال إلى بلاغة معينة(كلام معين تصرفا ما...)، ومن هذه الزاوية يُراعى الإطار الحالي للمتكلمين، أمّا الزاوية الثانية فتتمثل في رؤية الحجاج على أساس أنّه بنية نصية، وهنا يكون التركيز على الجوانب اللّغوية فقط، وذلك بالحديث على الأدوات اللّغوية، التّي تلعب في النّص دورًا حجاجيا، وهي المفردات، الأفعال، الظروف الأسماء...الخ».[16]

وما تجدر الإشارة إليه أيضا الحجاج عند اللّغوي الفرنسي" أزفالد ديكرو" (O.DUCROT) فهو يُفرّق بين معنيين للفظ الحجاج: المعنى العادي، والمعنى الفنّي أو الاصطلاحي والحجاج موضوع النظر في التداولية المدمجة هو بالمعنى الثاني.

الحجاج بالمعنى العادي يعني طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجعا فعّالا غير أنّه ليس معيارا كافيا إذْ يجب ألاّ تُهمل

طبيعة السامع(أو المستقبل) المُستهدَف من هذا الحجاج، فنجاح الخطاب يَكمُن في مدى مناسبته للسامع ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة في إقناعه.

أمّا الحجاج بالمعنى الفنّي فيدّلُ على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية.(17)

لقد أشار" ديكرو" إلى الحجاج داخل اللّغة كما رأينا من خلال كتابه" الحجاج في اللّغة" الذّي شاركه في تأليفه" جون كلود أنسكمبر"(Anscombre, Jean-Claude) إذ تركزت الدراسة في هذا الكتاب" في أديم لساني بحت، ويحتوي عن حجاج مختلف عند " بيرلمان" فهو حجاج يقوم على اللّغة بالأساس بل يكمن فيها، بينما الحجاج عند" بيرلمان" و" تيتكه" من خلال الكتاب المعنون بـــ" مصنف في الحجاج" Traite d'argumentions" الذّي شكل ظهوره فتحا جديدا وأساسيا في عالم الخطابة الجديدة، قد مثّل نظرة منطقية للحجاج وكان حريصا على الظهور بمظهر المنطقي المُتمكّن من آليات التفكير، وهذا ما يُنزل الحجاج في صميم التفاعل بين الخطيب وجمهوره، فلئن استندا في تعريفهما للحجاج على صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى، فإنّهما حرصا كلّ الحرص على جعل الحجاج أمرا ثالثا مفارقاً لهما رغم اتصاله بهما، فالحجاج حسب التعريف الذّي قدّماه يأخذ من الجدل التّمشي الفكري الذّي يقود إلى التأثير الذهني في المتلقي، ويأخذ من الخطابة توجيه السلوك أو العمل والإعداد له لكنّه يظل مختلفا عن الخطابة والجدل، من زاوية كسره للثنائية التقليدية وجمعه بين النظري والتأثير السلوكي العملي، فهو خطابة جديدة متسعة. (18)

وينزل الحجاج عند" ديكرو" وأتباعه في صميم المدرسة البرغماتية، فمقتضى انشغالها بوظائف الخطاب يُصبح مفهوم التفاعل مُؤسساً في أبحاث أصحابها، إذ في وضع معين يُحدث الباثُ جملة من الأعمال الإقناعية ذات طبيعة بلاغية معقدة تفعل في المتلقي الذّي يُحدث بدوره جملة من الأعمال. على هذا النحو أقرّ" ديكرو" بسلطة الخطاب الحجاجي فهو في نظره خطاب يَسّدُ المنافذ على أيّ حجاج مضاد فيحرص على توجيه المتلقي إلى وجهة واحدة دون سواها، وبذلك ننتهي إلى ميزتين أساسيتين هما:

– التأكيد على الوظيفة الحجاجية للبُنى اللّغوية.

– إبراز السّمة التوجيهية للخطاب.(19)

لقد رأينا الحجاج عند" بيرلمان" و" تيتكان" والحجاج عند" ديكرو" و" انسكومبر"، وكيف أنّ الأول اهتم بالتفاعل القائم بين الخطيب والجمهور، وأنّ الحجاج غير الخطابة والجدل في العلاقة الموجودة بينهما، في حين اهتم الثاني بالمدرسة البرغماتية" التداولية" وعدم إغفال الباث والمتلقي.

وما يجب ذكره في هذا المقام أنّ المدرسة البلجيكية تُعدّ الرائدة في مجال الدراسات البلاغية والحجاجية، حيث شكلت حلقة بحثية دراسية داخل قسم الاجتماع والفلسفة وصدر عنها الكتاب الرائد السابق الذّي ألّفه" بيرلمان" وصديقه" تيتكان"، ويَحمل إلى جانب عنوانه الكبير المذكور عنوانا فرعيا تفسيريا هو البلاغة الجديدة، وكان هذا العنوان إيذانا بدخول الدراسات البلاغية مرحلة جديدة يُعنى فيها بدراسة الحجاج الذّي يُعنى بصفة عامة دراسة تقنيات الخطاب التّي من شأنها أن تُؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذاك التسليم.[20]

والمسار الذّي يَتَبَنَّونه يطابقون فيه بين" البلاغة والحجاج"، منطلقين في ذلك من فكرة أنّ كلّ خطاب يسعى إلى تدعيم وضع أو تغيير آخر أو إيجاد موقف تجاه قضية ما، وأنّ كلّ تلك الخيارات لابُدّ لها أن تتأسس على خطط حجاجية مقصودٌ بها المخاطبون[21]، وتتأسس هذه البلاغة الجديدة تعاضد فكرتين جوهريتين:

– أولاهما وجودية ظاهراتية في آن عمادها مقولة" هيدجر" التّي اعتبر فيها" اللّغة" هي " الوجود" بكلّ أبعاده وأزمنته. أمّا الثانية فتأويلية مفادها ضرورة الانطلاق من اللّغة المرسلة في مقام معين ثم تفكيكها والغوص فيها للوصول إلى مكوناتها الأساسية.

لذا فقد اهتمت المدرسة البلجيكية في بلاغتها الجديدة هذه بدراسة التّنوع المعاصر للمخاطبين، كما تُعنى بلاغة الحجاج أيضا بثنائية بلاغة الحجّة وبلاغة أسلوبها معا كشرطين متلازمين لتحقيق الخطاب ونفاذه.[22]

بعد التّعرف على الخطاب الحجاجي وما يعنيه، وبعد أنْ كان فكرة تجول في خلد الكثيرين انتقل ليتطور من الفكرة إلى النظرية، ومن هذا تكونت لدراسته مدارس وأصبح الحجاج نظرية شاملة على مختلف الميادين.

2- علاقة الحجاج بمصطلحات أخرى:

أ- الاستدلال:

يرتبط الاستدلال بالحجاج من حيث أنّه يمثل« سياقه العقلي أي تطوره المنطقي، ذلك أنّ النّص الحجاجي نص قائم على البرهنة فيكون بناؤه على نظام معين تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي وتهدف إلى غاية مشتركة، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس فإذا أعدنا النّص الحجاجي إلى أبسط صورة وجدناه ترتيبا عقليا للعناصر اللّغوية، ترتيبا يستجيب لنية الإقناع»[23].

ونخلص إلى أنّ الاستدلال يرتبط بالبرهنة من جهة وبالإقناع من جهة أخرى.

ب- البرهنة:

ويعتمد فيها على« الأمثلة والحجج وكل تقنيات الإقناع مرورا بأبلغ إحصاء وأوضح استدلال وصولا إلى ألطف فكرة وأنفذها».[24]

وتكمن علاقة الحجاج بالبرهنة على طبيعة الأمثلة والحجج المقدمة، وترتبط بالإقناع باكتشاف طريقة عرضها وتقنياتها بالإقناع، ولطبيعة العملية الحجاجية دور في تحديد نوع النّص أو الخطاب، وذلك راجع لطبيعة العملية البرهانية.« إنّما تتحد بالنظر و" البرهنة" أي محاجة في مقابل: Argumentation، وبرهنة في مقابل Démonstration وفي هذا الصدد يرى" بيرلمان" أنّ البرهان Argument لا يُنقل من المقدّمات إلى النتيجة خاصيّة موضوعية كالحقيقة مثلا كما هو الحال في البرهنة الرياضية، لكنّه يسعى من أجل أن ينقل الموافقة التّي تحظى بها المقدّمات إلى النتيجة، هذه الموافقة مرتبطة دائما بجمهور معين، وهي تختلف من جمهور لآخر. إنّ أي واحد يجب أن يصل إلى نفس النتائج في نظام شكلي منسجم، لكنّ المسألة ليست بهذه الصورة في العملية البرهانية الحجاجية، حيث مواجهة عقول حيّة متوقدة ميّالة إلى فحص الأمور عن كثب، ومن هنا تكمن أهمية المرسل إليه في توجيه العملية البرهانية واختيار المعطيات والمقدمات»[25].

وهذا يدّل على أنّ مصطلح الحجاج« يُحيل على المحاجة ويوحي بأنّ هناك طرفين حاضرين يتنازعان الرأي، وليس المقصود من المصطلح، بل إنّ المتكلم الحاضر واحد أغلب الأحيان، يسعى إلى إقناع مخاطب متخيَّل بموقف أو فكرة والتأثير عليه، لكنّ

النموذج الشكلي هو واحد في العمليتين، والفرق بينهما يتمثل في صحة ومصداقية العناصر المكونة لهما.

وفي هذه الحالة يمكن ترجيح مصطلح الحجاج لأنّ هناك طرحين حاضرين فعلا ويتنازعان من أجل أن تتم الغلبة لأحدهما من خلال عملية جدالية تُقدّم فيها معطيات ترجح كفة طرح ومعطيات أخرى ترجح كفة الطرح الثاني».[26]

والشكل الآتي يوضح ذلك: [27]

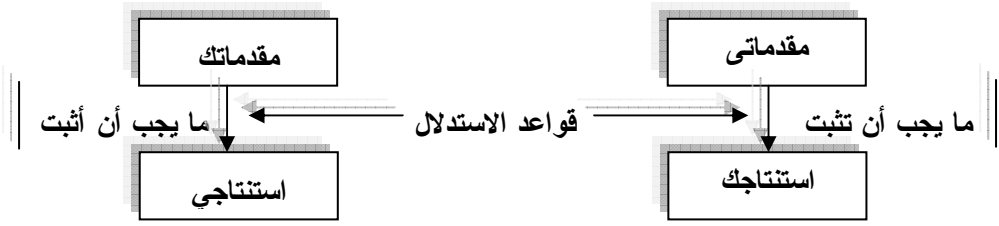

والدور الأكبر للخطاب البرهاني يتجسد في تطعيم الحجاج بالأساليب الأدبية البلاغية، هذا من جهة فنية،« ومن جهة ثانية أقرب إلى التربية منه على الدعاية ففي حين يكون موضوع التربية مما يقربه الجمهور ويعتقده ويؤمن به، فإنّ موضوع الدعاية يكون جديدا على أذهان الجمهور، والنوع البرهاني غايته مجرد إنشاء الاستعداد للعمل، شأنه في ذلك شان الخطاب التربوي».[28]

ج- الإقنـــاع:

غاية المتكلم الحجاج« والإبداع يأتي في درجة ثانية[...] والإقناع بما هو Persuasion، إنّما هو الوجه الغائم للحجاج ومرادفه الآخر، عبر مقولة المواضع المنطقية، وقد حاول العديد من الدارسين وضع الفروق بينهما: أي بين الإقناع والحجاج، وذلك أنّ الإقناع هو ما به يحاول الإنسان إقناع نفسه، في حين أنّ الحجاج هو ما به يحاول إقناع الآخر، وذلك بوسائط متنافرة، منها ما يعود للّغة وما توفره من بُنى وأساليب ومفردات وتركيب، وروابط مؤثرة حجاجيا»[29]، لهذا يُفصل بين الحجاج والإقناع النص الخطابي نص إقناعي، ولكنه ليس نصا حجاجيا.

ومن هذا يطغى الحجاج الذّي صورته الإقناع في كلّ موضع ويمكن فصل الحجاج والإقناع بالنظر إلى الحجج المعتمدة ذلك« لأن الحجاج عملية اتصالية، تعتمد

الحجة المنطقية بالأساس وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم»[30]. إضافة إلى وظيفة التأثير في هذه الحجج.

وبالنظر إلى طبيعة المتلقي، فإن كان المتكلم يخبره بكلام جديد فهو يُقنع، أمّا إن كان المتلقي رافضا أو منكرا للكلام، فيتحول الخطاب من إقناعي إلى حجاجي، لأنّ المتلقي متى سلم بالمقدمات التّي قدّمها المتكلم فهو مقتنع من طرفه، ومتى ردّها أو رفضها فهو محاجج، ويتمثل ردّ ورفض المتلقي في استخدامه لحجج قد تعيق حجج المتكلم من بلوغ هدفه.

ويتوقف الإقناع على التأثيرات التّي يحدثها الكلام بفعل المتكلم سواء تعلّق الأمر بالفتنة، أو الانفعال، أو إحداث مجرد تقدّم، وهو يُنمّ من هذا الوجه عن ذكاء صاحبه ويشي بمعرفته الدقيقة بنفسية المتلقي وقدراته وآفاقه، لذلك نراه يعلن أمرا ويذكر آخر، يختزل فكرة ويسهب في تحليل أخرى، يسأل ويجيب، بل قد يأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة فيتجلى في خطابه سحر البيان وتتأكد فتنة الكلام.

ولإحداث أثر ما في المتلقي أي إقناعه بفكرة معينة، وهو ما يُعبّر عنه اللسانيون بالوظيفة الإيحائية(Connotative) للكلام، وهو وضع لإقناع المتلقي بفكرة ما أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة، ويظهر ذلك أكثر في الخطاب الإشهاري حين يحاول الإشهار بمنتوج معين إقناع المتفرج واستمالته كزبون[31]، ويشترط في الإقناع البيّنة التي تكون« فيه بمنزل الدليل الذّي بلغ درجة الوضوح يصير معها المتوسل به قادرا على الظهور على خصمه، كما لو كان هذا الدليل الظاهر مُستغنيا بظهوره عن جانب الاستدلال فيه»[32]. وهنا يتداخل الاستدلال والإقناع، لأنّ الدليل الذّي هو جزء من عملية الاستدلال يوصف بأنّه مقنع أو غير ذلك.

وعلى العموم فإنّ الاستدلال، والبرهان، والإقناع هي مصطلحات تُمثّل وجوه الحجاج من جهة وتعرف سمات الخطاب الحجاجي بهم من جهة أخرى، بالنظر إلى المتكلم أهو يستدل؟ أو يبرهن؟ أم أنّه يقنع؟

ويمكن لهذه الوجوه وهذه السمات أن تحدد المراتب التّي يترتب بها الحجاج ويمكن للمتفحص الواعي أن يدرك منزلة قطبي التواصل من هذا، بالإضافة إلى أنّه يوافق مصطلح البلاغة، والبيان، وغيرهما.

3- مراتب الحجاج:

أ- الحجاج والبرهنة:

ننطلق من الحجة ومن« معناها السائر هي إمّا تمشى ذهني يقصد إثبات قضية أو دحضها، وإمّا دليل يُقدّم لصالح أطروحة ما، أو ضدّها بهذا المعنى نقابل بين الحجة " Argument" والبرهان" Preuve" وبين الحجاج" Argumentations" والبرهنة " Démonstration" وفي هذه الحالة فحسب يمثل الحجاج خصوصية تستحق دراسة مخصوصة»[33].

من هنا ندرك أنّ البرهان تكون الحجة خادمة له لإثبات قضية أو دحضها ويمكن تسميتها بالحجة البرهانية، والسامع في هذه الحالة يكون مدرك لنتيجة القضية المُقدّمة وإنّما عمل المحاجج أن يبرهن له عن صحتها، وإمّا أن تكون في ذهنه نتيجة أخرى لنفس القضية المُقدّمة، وعمل المحاجج هنا البرهنة على صحة نتيجة مقدمته.

ويمكن« دراسة الحجاج من تحليل التقنيات الخطابية التي تسمح بأحداث ميل السامع إلى الأطروحات التّي نعرضها على مسامعه أو التّي تسمح بتعزيز ذلك الميل، وهذا ما يجعل الاختلاف بين الحجاج والبرهنة أمرا من قبيل المسلمات. أمّا البرهنة: فهي استنباط يهدف إلى الاستدلال على صدْقية النتيجة أو احتماليتها القابلة للاحتساب، وذلك انطلاقا من المقدّمات المعتبرة صادقة أو محتملة وفي تقابل مع البرهنة التّي يمكن أن تتخذ شكل حساب فإنّ الحجاج يُطلب به الإثبات والإقناع».[34]

كما يمكن عدّ البرهنة مرتبة أولى بسيطة من الحجاج، ذلك لأنّ الحجاج« لا يتم توجيهه إلاّ في سياق نفسي اجتماعي، فإن كانت البرهنة تقع بطريقة مجردة في استقلال عن كل سياق عدا سياق النظام وكانت صحيحة أو خاطئة، مطابقة لقواعد الاستدلال في النظام أو غير مطابقة، فإنّ الحجاج ينهض على حجج مفيدة أو غير مفيدة قوية أو ضعيفة، موافقة للخطاب الذي نتوجه إليه، ولا يقوم التفكير الحجاجي على حقائق عامة ولكن على آراء تهتم بأطروحات من كل طائفة، فمجال تطبيق نظرية الحجاج يتجاوز مجال تطبيق نظرية البرهنة أيّما تجاوز، ذلك أنّ الحجاجات تنهض على كل ما يمكن أن يكون موضوع إبداء رأي أو إصدار حكم قيمة أو حكم واقع أو موافقة نظرية أو مناسبة قرار، توفر البرهنة أدّلة ضرورية، أمّا الحجاج فيقدّم أدلة لصالح أطروحة محدودة أو

ضدها»[35]. يغدو الحجاج من هذا هو الصورة الأكبر وتكون البرهنة جزءا من هذه الصورة أو مرئية له.

ب– الإفحام والإقناع:

يتجلى من العنوان أن يكون المتكلم ذا ملكة حجاجية هدفها إقناع السامع وإفحامه. « وتركز هذه النظرية على التنوع الشديد للمخاطبين الذّين يُتوجّه لهم خطاب مكتوب حجاجي، هؤلاء المخاطبون الذّين يُتوجّه نحوهم الحجاج يتراوحون كميا من فرد واحد إلى البشرية جمعاء، ويتراوحون كيفيا من مجموعة من العوام المجتمعين في الساحة العامة إلى الفرق الدقيقة التخصص والعالية الكفاءة فثمة مخاطب من صنف خاص، إذ يوازن المتكلم بين الانتصار لشيء أو معارضته، جاعلا نفسه كائنا مضاعفا، إذ يتخذ المتكلم ذاته مخاطبا له»[36].

نخلص إلى أنّ لكل سامع مرتبة من مراتب الحجاج تُمارس عليه من قبل المتكلم، وذلك بالنظر إلى ثقافة السامع ومحيطه والمجتمع الذّي يعيش فيه ويتفاعل معه فمنه من يسمع يقتنع ولكنّ منهم من يسمع ليحاجج، ومن هنا ينتقل المحاجج إلى مرتبة الإقناع ومن بعدها الإفحام وفق آليات حجاجية تستميل ذهن أيّ نوع من السامع. ولكي تكون للمتكلم فكرة عن السامع عليه أن يُعمل العقل« أي إنّ استعمال العقل ليس أمرا ذاتيا خالصا، بل هو يستحضر الآخر/ المخاطب) ويقرأ له حساب»[37].

معنى هذا أن هناك عقول تقبل أيّ أطروحة وأيّ مقدمة لكن هناك عقول مُتوقّدة تستفسر وتسأل لتقنع في الأخير، و« يتمثل هدف الحجاج التأثير في الجمهور، والمعيار الأول الذّي نقيس به خطابا ما هو نجاعته، بيد أنّه ليس معيارا كافيا لأنّنا لا يمكن أن نُهمل نوعية الجمهور الذّي يُوجّه الخطاب إليه، إنّنا نستطيع التمييز بين خطابات رجل السياسة والمحامي، والعالم والمفكر والمتكلم(نسبة إلى علم الكلام) والفيلسوف، لا فقط بمواضيعها بل نميزها أيضا وخاصة بالجمهور الذّي تتوجّه إليه تلك الخطابات، وبحسب التقنيات المستعملة، فلإقناع سامع مخصوص تستعمل آليات لا تصلح لإقناع جمهور كوني، ويتسم الحجاج بالعقلاني لكونه قادرا على إقناع جمهور كوني»[38].

لا يتحقق الإقناع والإفحام إلاّ إذا كان السامع لا يقبل المسلمات والمقدّمات لمجرد سماعها، ووجب على المتكلّم أن يمتلك ناصية الإقناع في الكلام وطرق الإفحام به، من

هنا يبرز شساعة المدى الذّي تكون عليه الممارسات الخطابية الحجاجية مستقرة، والمدى الذّي تكون عليه قابلة للتغيير.

4- بواعث الحجاج:

إنّ الخطاب ممارسة كلام بين طرفين أو أكثر، لكن قد توجد هذه الممارسة لإقامة علاقة تخاطبية، هذه العلاقة قد تكون لنقل قول، أو الإخبار عن شيء، وقد تنشأ لإقناع الطرف الآخر، ويحمله على ما يتكلم به، وهنا يكون للخطاب عدّة مقاصد« قصد التّوجه إلى الآخر وقصد إفهامه مرادا مخصوصا، من غير أن يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك، وإنّما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدين التخاطبيين المذكورين قصدين معرفيين هما" قصد الإدعاء" و" قصد الاعتراض"»[39] نراهما من بواعث الحجاج.

وقصد الإدّعاء يقتضي« أنّ المنطوق به لا يكون خطابا حقا، حتّى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد، لما يقول من نفسه، وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، ذلك لأنّ الخلو عن الاعتقاد يجعل الناطق، إمّا ناقلا لقول غيره، فلا يُلزمه اعتقاده، وإمّا كاذبا في قوله، فيكون عابثا باعتقاد غيره، ولأنّ الخلو عن الاستعداد للتدليل يجعل الناطق إمّا متحكما بقوله، فلا يُتوسل إلاّ بالسلطان، وإمّا مؤمنا بقول غيره، فلا يحتاج إلى برهان»[40].

ولا شك أنّ هذا الإدّعاء« يقابل المقدمات بمصطلح آخر التّي تُدّعم بأدّلة وحجج ثم النتائج، وأمّا قصد الاعتراض فبمقتضاه أنّ المنطوق به لا يكون خطابا حقّا حتّى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدّعيه، ذلك لأنّ فَقْد المنطوق له لهذا الحق يجعله، إمّا دائم التسليم بما يدّعيه الناطق، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإمّا عديم المشاركة في مدار الكلام».[41]

نشير إلى أنّ المعترض هو المخاطَب والمدّعي هو المخاطِب، فلفظة معترض تدلّ على كل سامع يطالب بدليل على ما يقوله له المدّعي وهو المتكلّم، ومن هنا الإدّعاء والاعتراض يشاركان في تكوين سبب للحجاج وعليه فلا متكلم من غير وظيفة الإدعاء ولا سامع من غير أن تكون له وظيفة المعترض، ونبين أنّ هذا من بواعث الحجاج مما يتعلق بوظيفة طرفي التواصل، أمّا المتكلم فيدعى أمرا، والسامع يعترض ذلك الادّعاء بطلبه الدليل وإقامة الحجة.

رأينا الباعث الأول من حيث قصد المتكلم والسامع، وهناك من بواعث الحجاج – أيضا– التّي تُعدّ المحرك الأول له، وهو الاختلاف Disagreement، فالحجاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فلا نحاجج في أمور حقيقية يقينية راسخة كالحقائق الرياضية مثلا، أو في أمر مأخوذ على أنّه أمر صارم واجب النفاذ« وإنّما يكون الحجاج كما يقول" بيرلمان" فيما هو مرجح Likley، وممكن Possible، ومحتمل Probable، كما أنّ الأدّلة التّي تُقدّمها المحاجة ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي، بحيث تقرر ما تقرره أو تنفي ما تنفيه على سبيل الحقيقة المؤكدة الراسخة، التّي لا تقبل شكا، أو لا تقبل احتمال خطأ ما تثبته أو صحة ما تنفيه، إذ ليس لمسألة ما تدور حولها محاجة حقيقية واحدة أو مطلقة، بل لها حقائق متعددة ومتدرجة، وعلى الأدلة أن ترجح إحداها على الأخرى أو أن تصل إلى ما هو أقرب إلى الصواب»[42].

يتبين لنا من هذه الأفكار أن الاختلاف يكون بين المتكلم والسامع في أمور ومواضيع ممكنة ومرجحة، أي تكون الغلبة لطرف ولا يكون الحجاج قائم على الاختلاف في أمور وحقائق ومعارف متفق عليها ومشروعة في المجتمع على اصطلاحيتها، بالإضافة إلى الحقول التّي يكون الحجاج فيها والتّي ذكرها"بيرلمان".« فيرى أنّ مقدمات الحجاج هي التّي تؤسس نقاط الانطلاق للحجاج Points de depart de l'argumentation ومن أهم هذه المقدمات الوقائع les faits والحقائق réalités والافتراضات suppositions والقيم valeurs وهرمية القيم Hiérarchies des valeurs والمواضع Lieux، وكل هذه المقدمات كما يرى" بيرلمان" تتفرع إلى ضربين: أحدهما مداره على الواقع le réel وهو الخاص بالوقائع والحقائق والافتراضات والآخر مداره على المفضل le préférable وهو المتعلق بالقيم ومراتبها وبالمواضع»[43].

فالوقائع تمثل باعثا للحجاج من زاوية أنها مشتركة بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس... والافتراضات، فهي تسلم من طرف المعنيين بها ولكنّها ليست ثابتة وهي متغيرة تبعا للوسط والمقام والمتكلم والسامعين، أمّا القيّم فاحترامها يمثل فاعلية في نجاح الحجاج، إذ الاختلاف يقع في نقاط وهو يقوم بين متخاطبين بما يسمى بالحجاج، إذن تكون الممارسات الخطابية حجاجية ومداها أكبر في هذه البواعث: المقدمات، الاختلاف، الإدعاء، والاعتراض وتكون مختلفة متى اختلفت هذه البواعث.

5- تقنيات ووسائل الحجاج:

أمّا تقنيات الحجاج فيقسّمها(بيرلمان وزميله) إلى فئتين- هذا التقسيم يخص تقنيات الحجاج اللغوية، متمثلة في تقنية طرق الوصل وتقنيات طرق الفصل« ويقصد بالأولى ما يتم به فهم الخطط التّي تُقرب بين العناصر المتباعدة في الأصل لتمنح فرصة توحيدها من أجل تنظيمها، وكذلك تقويم كل منها بواسطة الأخرى سلبا وإيجابا وتقنيات الفصل هي التّي تكون غايتها توزيع العناصر التّي تُعدّ كلا واحدا أو على الأقل مجموعة متحدة ضمن بعض الأنظمة الفكرية أو فصلها أو تفكيكها»[44].

ويمكن تقسيم تقنيات الحجاج إلى:

- « الأدوات اللّغوية الصرفة: مثل ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل النسبي والتركيب الشرطي وكذلك الأفعال اللّغوية والحجاج بالتبادل والوصف وتحصيل الحاصل.

- الآليات البلاغية: مثل تقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة، البديع، التمثيل.

- الآليات شبه المنطقية: ويجسدها السُلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللّغوية، ويندرج ضمنه كثير منها، مثل الروابط الحجاجية: لكن، حتى، فضلا، عن، ليس، كذا، فحسب، أدوات التوكيد ودرجات التوكيد والإحصاءات، وبعض الآليات التّي منها الصيغ الصرفية مثل التعدية بأفعال التفضيل والقياس وصيغ المبالغة»[45].

أمّا بالنظر إلى استراتيجية الحجاج وهي الإقناع التّي يعتمدها في قيامه، وتكون هدفا لممارسته من قبل المتكلم فإنّ الوسائل والتقنيات التّي تقع تحت استراتيجية الإقناع هي:

1- الوسائل اللسانية: ونقصد بها أدوات الاتساق والترابط والانسجام.

وقد تُستعمل أدوات الاتساق استعمالا حجاجيا ومن أهمها:

أ- الإحالة: وتكمن حجاجيتها في« أنّ العناصر المُحيلة كيفما كان نوعها لا تكتف بذاتها من حيث التأويل، إذْ لابُدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها»[46]، وهي تنقسم إلى نوعين: إحالة مقامية، وإحالة نصية، وتنقسم الإحالة النّصية إلى قبلية وبعدية.

بهذا تُؤخذ الإحالة بنوعيها كوسيلة لسانية للحجاج تُؤثر على المستمع، لعمله العقلي في إيجاد الشيء المُحال له وأدوات الإحالة ولإيجاد معناها يجب مراعاة ما تسند إليه.

ب– الحذف: وهو علاقة داخل النّص، تكمن حجاجيته في جعل القارئ يملأ هذا الفراغ، بالاعتماد على ما ورد في الجملة الأولى أو استنادا لما سبق.

ج– الوصل: هو« تحديد الطريقة التي يترابط بها اللاّحق مع السابق بشكل منظم».[47] ويمكن أن تُؤخذ أدوات الربط خدمة لهذا الوصل بكل أنواعه: الوصل الإضافي، العكسي، السببي، والزمني.

د– التكرار: هو« شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما».[48]

تكمن حجاجية التكرار في إعادة اللفظ أو معناه، فهو بقدر ما يؤكد المعنى تُعدّ له هذه الوظيفة حجاجية.

2– الوسائل الأصولية والفلسفية:

أ– القياس: وقد سمّاه" طه عبد الرحمٰن"" بالاستدلال الكلامي" في كتابه" في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" وهو ما يُعرف" بالقياس والمماثلة"، ويعتبر أبرز وسيلة حجاجية استوحاها الخطاب الحجاجي من الأصوليين والفلاسفة.

فالقياس« فعالية استدلالية خطابية»[49] ونفهم من هذا أنّ القياس يُؤثر به كوسيلة حجاجية في الخطاب ليكون أكثر نجاعة وإقناعا علما أنّ هذا القياس أنواع: القياس البياني، المماثلة أو القياس العرفاني، القياس البرهاني.

ب– التمثيل: وفيه تعقد« الصلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج، وبيان حججه»[50]، ومن هنا يتقاطع القياس مع التشبيه في العناصر، ويظهر هذا في كون القياس « إظهار لوجود الشبه بين الشيئين»[51]، بمعنى أنّ« القياس أيّاً كانت صيغته التعبيرية التّي يرد بها إنْ مقارنة أو تشبيها أو استعارة أو غيرهما، فإنّه يقوم في الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما» [52].

ويمكن القول:« إنّ القياس هو البنية الاستدلالية لكل قول طبيعي، حقيقة كان أو مجازا، فإنّ الأول مجازا، فإمّا أنّه استعاري أو غير استعاري، فإن كان الأول فلا منازعة في صفة المشابهة القياسية التّي تقوم بها الاستعارة، وإن كان الثاني، فمردّه إلى دلالة المفهوم المعتبر في القياس، وأمّا إن كان القول حقيقة فلا مندوحة من التسليم بأن تعقله»[53].

نخلص في الأخير إلى أنّ القياس آلية منطقية حجاجية، يمكن للمحاجج أن يعتمد عليها في إقناع المعترض عن كلامه وعليه: فإن« الاستدلال القياسي يحتوي الآليات التّي يتوالد بها كلّ خطاب طبيعي وتتكاثر بها أجزاؤه، وتتماسك فيما بينها»[54].

وما دام القياس يُعدّ وسيلة وآلية حجاجية وجب أن نبين أن فعالية الاستدلال القياسي تبنى على ثلاث مسلمات وأهمها المسلمة الحوارية،« ومقتضى هذه المسلمة أنّه لا كلام مفيد إلاّ بين اثنين، لكل منهما مقامان، هما مقام المتكلم ومقام المستمع، ولكل مقام وظيفتان هما وظيفة المعتقد ووظيفة المنتقد، بحيث إذا كان المتكلم معتقدا كان المستمع منتقدا، وإذا كان المستمع معتقدا كان المتكلم منتقدا» [55].

ويمكن تلخيص فائدة اعتماد القياس في الخطاب الحجاجي، فالقائس« لا يُصدر حكما من عنده، لا يبتدئه، بل إنّما يمدد حكم الأصل إلى الفرع، إثباتا أو نفيا، اعتمادا على ما يجده هو من شبه بينهما يبرر القياس»[56].

وهذا ما يظهر قوة القياس الحجاجية لأنّه يزيد من القوة الإقناعية لخطاب المتكلم، ومن هذا نخلص إلى المكانة التّي يحتلها القياس بأنواعه في نجاحة الخطاب الحجاجي، بل يمكن القول إنّ الخطاب الحجاجي إنّما هو حجاجي، لأنّه يقوم على القياس، كما توصف الفلسفة، والفقه، والأصول، والبلاغة... بأنّها حجاجية(استدلالية) لاعتمادها القياس آلية حجاجية ووسيلة لتثبيت قضاياها، وهكذا فإنّ القياس آلية من الآليات الحجاجية في الحقل الخطابي الحجاجي، وللقياس« دور كبير في هذه الصناعة عند من يحذق استعماله، لأنّ لمقدماته صورا عديدة فمنها مثلا ما هو معلوم علم اليقين ومنها المظنون، ومنها المحسوس، ولكل منها درجته الحجاجية، بحيث يعمد المحاجج إلى التركيز على الجزء الذّي يخدم بناءه الحجاجي»[57]، ومعنى هذا إن القياس يساهم في صبغ الخطاب بصبغة حجاجية ويفيه حقّه من الإقناع، فمن الخطاب« يستمد مسلماته وفيه يبني عملياته، وبه يربط قواعده[...] لذلك اختص بصفات تداولية منطقية متفردة تجعل الآليات القياسية لا ينحصر عملها في قطاع فكري معين، وإنّما يشمل كلّ خطاب طبيعي أيّا كانت لغته، وأيّا كان مجاله وأيّا كان مستواه»[58].

3- الوسائل البلاغية: ميزة الكلام بين اثنين التخاطب مع وجود نية التأثير وبصور مختلفة« واللّغات تتفاضل في حقيقتها وجوهرها بالبيان، وهو تأدية المعاني التّي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير، وفي صورتها وأجراس

كلمها بعذوبة النطق، وسهولة اللفظ والإلقاء، والخفة على السمع وإن للّغة العربية من هذه المميزات الميزان الراجح، والجواد القارح. يَعرف ذلك من أخذها بحق، وجرى فيها على عرق، فكان من مفرداتها على علم، وضَرب في أساليبها بسهم»[59].

وفحوى هذا الكلام أنّ الذّي يُجيد استعمال اللّغة، بفنونها، يبلغ مراده من السامع، ونشير هنا إلى الحجاج بالمجاز أي باستعمال الصور البيانية« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية، إلى صورته كساها أُبَّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقَسّر الطباع على أن تُعطيها محبة وشغفا»[60]. ويكون التمثيل أو التشبيه أبلغ إذا وُفّق المتكلم في اختيار صوره وطبيعة المقام: فما يصلح ويكون أبلغ في الفخر والتعظيم لا يصلح في الذم والمدح« وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر[...] وإن كان وعظا كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلى الغيابه، ويُبصر الغاية، ويُبرئ العليل ويُشفي الغليل»[61].

نخلص من هذا إلى أنّ ضروب الكلام متعددة: المدح، الذم، الحجاج، الوعظ، الافتخار، الاعتذار. والكلام على هذه الأغراض ضربان: حقيقة ومجاز، ولكل منهما مقامه وتأثيره، وإذا أخذنا أنّ الكلام ذو طبيعة حجاجية حقيقية كانت أم مجازا، فتسند تلك الأغراض إلى الحجاج، لكن عن طريق المجاز.

والحجاج« ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة الذّي لا نجد له نظير في غيره من الاستدلال، ولولا تَضمُن الحجاج لهذا الالتباس لما تميزت طريقته عن طريق البرهان، فهذا الالتباس هو إذن الفاصل بين الحجاج وبين البرهان، وإذا كان الالتباس لا ينفك عن الحجاج، فإنّ الأدلة الحجاجية، تصير في نهاية المطاف أشبه بالمغالطات التّي هي أدلة فاسدة».[62]

وهذا راجع لطبيعة الحجاج أهو بالكلام الحقيقي، أم بالكلام المجازي، وذلك لأنّ « الأصل في الالتباس الذّي يقوم بالحجاج ليس هو تعدد معاني اللفظ الواحد في الدليل بحيث يحمل هذا اللفظ في قضية منه على معنى وفي قضية أخرى على معنى ثان»[63]، وتكون العبارة المُحاجَج بها الموصوفة بالمجازية حاملة لازدواج« بين واقع الدعوى

وقيمتها، وما واقع الدعوى إلاّ ظاهرها أو قُلْ عبارتها، وما قيمتها إلاّ باطنها وإشارتها بحيث يكون المجاز هو الاستدلال بعبارة الدعوى على إشارتها»[64]. وتُعد الاستعارة أفضل ضروب المجاز وأشدّها وقعاً على النفس وتأثيرا في العقل في كونها تركيب يتناسى التشبيه، كما تُؤخذ أنواع المجاز الأخرى على حدّ الاستعارة في قوتها، إذا كانت في مقامها، فالمجاز يكون أبلغ من مجاز في مواقف ومقامات، فهذا المقام يكون أنسب للكناية من التشبيه والاستعارة، وآخر الاستعارة أنسب منهما، وهذا يتوقف على معرفة المتكلم للصواب والمجاز الناجح لمختلف الخطابات. وتكمن حجاجية الاستعارة مثلا في « الخاصية التّي تَغلبُ على القول المجازي الاستعاري، هي أنّ الجنس الذي يدخل فيه " المستعار" أو قل إن شئت" المستعار منه" يكون مباينا للجنس الذّي يدخل فيه المستعار له»[65].

والأمر نفسه يؤخذ على التشبيه في كونه وصف بقوة للتأثير في السامع وأيضا الكناية من زاوية بلاغتها إشفاء الغليل من الخصم، وما الحجاج إلاّ تأثير في الخصم بالمجاز يعمد فيه المتكلم للحجاج بمعناه الباطن المشار إليه، لأنّ الكلمة في المجاز تنقل من معناها وعن حكم كان بها إلى معنى وحكم ليس بحقيقة فيها.

وفضل الحجاج بالمجاز وبكل ضروبه« ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك[...] وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذاك عن الفكرة، إذا كان المعنى لطيفا فإنّ المعاني الشريفة اللطيفة لابُدّ فيها من ثان على أول، ورد تال إلى سابق»[66].

يأخذ الحجاج شكلا وصبغة معينة تحدد طبيعة المصطلح بالنظر إلى مراتبه وبواعثه هذا من جهة، ومن جهة أخرى يأخذ الحجاج صبغة أخرى إذا ما نظرنا إلى حقل تقنياته ووسائله. فالحجاج إذا ما تتبعنا معناه في البلاغة العربية فهو يطابق معنى البيان. كما يطابق المقولتين الشهيرتين" لكل مقام مقال" و" مطابقة الكلام لمقتضى الحال".

الهوامش:

(1) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، الجزء الأول، المكتبة الإسلامية، الطبعة 2، ص: 106. 107.

(2) جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت– لبنان، الطبعة1، 1998، ص: 74.

(3) جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة(ح ج ج)، دار صادر، بيروت، الطبعة1، 2000، ص: 38.

(4) سورة آل عمران، الآية: 66.

(5) سورة الأنعام، الآية: 80.

(6) سورة الشورى، الآية: 16.

(7) سورة غافر، الآية: 47.

(8) ينظر، فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، الطبعة1، 2003، ص: 32.

(9) ينظر، طه عبد الرحمٰن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الرباط– المغرب، الطبعة الأولى، 1998. ص: 213.

(10) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الطبعة 1، 2001، ص: 21.

(11) طه عبد الرحمٰن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 226.

(12) ينظر، جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008. ص: 105– 106.

(13) الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم مجلة ملتقى النص، مجلة اللغة والأدب ملتقى علم النص، العدد: 12 جامعة الجزائر، ديسمبر 1997. ص: 330.

(14) يمينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية في اللغة والآداب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، العدد 02، ماي 2007، ص: 284.

(15) صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل نصوص، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، الطبعة 1، 2008، ص: 68

(16) يمينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، ص: 286.

(17) ينظر، صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 21.

(18) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 21، 22، 23، وما بعدها.

(19) ينظر، نفسه، ص: 23، 24.
(20) ينظر، محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، منشورات المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهرية العظمى، الطبعة1، 2004، ص: 15.
(21) ينظر، نفسه، ص: 16.
(22) ينظر، نفسه، ص: 16.
(23) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 27.
(24) نفسه، ص: 27.
(25) عبد القادر بوزيده، نموذج من المقطع البرهاني، ص: 317، 318.
(26) نفسه، ص: 326، 327.
(27) نفسه، ص: 112.
(28) محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 110.
(29) عز الدين الناجح، المفهوم من خلال الملفوظ الإشهاري، مجلة الخطاب، دورية أكاديمية، جامعة تيزي وزو، العدد: 02، ماي 2007، ص: 271.
(30) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 105.
(31) ينظر، سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 26، 27.
(32) طه عبد الرحمٰن، اللسان الميزان أو التكوثر العقلي، ص: 136.
(33) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 68.
(34) نفسه، ص: 69.
(35) نفسه، ص: 69.
(36) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص: 70.
(37) نفسه، ص: 70.
(38) نفسه، ص: 70.
(39) طه عبد الرحمٰن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 225.
(40) نفسه، ص: 225.
(41) طه عبد الرحمٰن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 226.
(42) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 106.

(43) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 111، 113.

(44) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، الطبعة1، 2004، ص: 477.

(45) نفسه، ص: 477.

(46) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، دار المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة1، 1991، ص: 16، 17.

(47) نفسه، ص: 22.

(48) نفسه، ص: 24.

(49) طه عبد الرحمٰن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 98.

(50) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 497.

(51) طه عبد الرحمٰن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 99.

(52) نفسه، ص: 98.

(53) نفسه، ص: 115.

(54) نفسه، ص: 115.

(55) نفسه، ص: 99.

(56) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظام المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة السابعة، 2004. ص: 139.

(57) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 197.

(58) طه عبد الرحمٰن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 140.

(59) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة 2، المقدمة، ص: 01.

(60) نفسه، ص: 92، 93.

(61) نفسه، ص: 94، 95، 96.

(62) طه عبد الرحمٰن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 229، 230.

(63) نفسه، ص: 230.

(64) ينظر، نفسه، ص: 231.

(65) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 297.

(66) نفسه، ص: 122، 123.